

في الخريف الخامس والثمانين بعد وعد بلفور

قراءة بسيطة في رسالة بلفور إلى روتشيلد وإحصاء ميراث بوش وبلير

ناهض منير الرئيس

النائب عن دائرة غزة

قرأت قديما دراسة بقلم المرحوم أحمد الشقيري يتحدث فيها عن خريطة فلسطين : كيف ومتى رسمت .. ومن الذين وضعوا خطوطها .. وما العلة في جعل حدودها الشمالية خاصة على هيئة إصبع (الجليل) . وخلاصة الكلام الدقيق والذكي الذي لم أعد أتذكر تفاصيله الآن أن الأيدي الصهيونية هي التي وجهت الأصابع البريطانية الممسكة بالقلم لتجعل الخط مستقيما هنا أو معوجا هناك حسب الأهداف المحددة للمصالح الصهيونية القريبة وبعيدة المدى ، وذلك منذ الوقت الذي كانت فكرة الدولة الصهيونية فيه حلما بعيد المنال ولم تكن فلسطين في حوزة البريطانيين ولا اليهود ، بل في حوزة أهلها أصحابها العرب الذين كانوا رعايا السلطنة العثمانية المسلمة .

وهناك في تاريخ القضية الفلسطينية سيل من المعلومات والتحليلات التي توضح بجلاء أن الأيدي الصهيونية كانت تمسك بأصابع السياسيين في البلدان الاستعمارية لتخط الكلمات والحروف ، وترسم الخرائط ، وتصدر القرارات ، كلما كان الأمر يتصل بفلسطين ومستقبلها . وربما كان من أبرز الأمثلة على ذلك وعد بلفور المشؤوم الذي مر عليه قبل أيام معدودات خمسة وثمانون خريفا . فمعاودة الرجوع إلى شتى التفاصيل والملابسات التي جرت في لندن وموسكو وواشنطن وباريس وسان ريمو لدى إنشاء تلك الرسالة البريطانية - الصهيونية ، ثم تكريسها وثيقة رسمية دولية ، تؤكد هيمنة الإرادة الصهيونية على بقية الإرادات الدولية . وتظهر تفاصيل تلك الهيمنة في صور شتى : بدءا بالاستمالة وإثارة الأطماع وانتهاء بالتهديد والابتزاز . وقد حصلت القيادة الصهيونية على مبتهاها واستصدرت رسالة الوعد على الرغم من معارضة أوساط دولية عديدة .

وقبل أن نمضي قدما في هذا الاسترجاع التاريخي الذي نرمي إلى ربط العديد من ظواهر الحاضر السياسي به ، ننقل فيما يلي - لاطلاع الأجيال التي لم تتعرف سابقا لهذه الوثيقة - الترجمة العربية لما يعرف بوعد بلفور ، وهو عبارة عن رسالة مؤرخة في ٢ / ١١ / ١٩١٧ موجهة من قبل آرثر جيمس بلفور (الذي كان في ذلك الحين وزير خارجية بريطانيا العظمى) إلى اللورد داموند روتشيلد المصرفي اليهودي البريطاني صاحب البنك الكبير في مدينة لندن :

مكتب الخارجية

٢ نوفمبر ١٩١٧

عزيزي اللورد روتشيلد :

بسرور بالغ أنقل إليكم بالنيابة عن حكومة جلالتهم التصريح التالي المتضمن التعاطف مع الأمانى اليهودية الصهيونية التي قدمت إلى مجلس الوزراء ولاقت موافقته :

((إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف . على أن يكون مفهوما بوضوح أنه لن يتخذ شيء من شأنه الإجحاف بالحقوق المدنية والدينية الخاصة بالجماعات غير اليهودية المتواجدة في فلسطين أو بالحقوق والأوضاع السياسية التي يتمتع بها يهود في أية دولة أخرى .))

وسأكون ممتنا إذا قمتم بإطلاع الاتحاد الصهيوني على هذا التصريح .

المخلص

آرثر بلفور

رفع التكليف

ومن النظرة الأولى للنص في عمومه ، دون رجوع إلى خلفياته البعيدة ، وإنما بمجرد استحضار المناخ السائد في ذلك الزمن وفقا للمعلومات العامة ، نسجل الملاحظات الآتية :

أولا - الكتاب صادر رسميا بتوقيع وزير الخارجية البريطاني ، على ورق يحمل ترويسة وزارة الخارجية ، بدون أن يوضع ختم الوزارة عليه .

ثانيا - أسلوب النداء في الكتاب يوحي بقدر من الود الشخصي ورفع التكليف بين المرسل والمرسل إليه ، إذ جعله : عزيزي اللورد ولم يجعله (مثلا) : إلى اللورد . كما أن توجيه الكتاب إلى مصرفي يهودي ما زال اسم أسرته مقترنا بالبنوك حتى اليوم يشير إلى ارتباط إنشاء إسرائيل منذ البداية بالمال والأعمال والصيرفة والاستثمارات .

ثالثا - استخدم وزير الخارجية البريطاني تعبير السرور البالغ بالمناسبة ، وهي عبارة تقارب تعبير " أرف إليكم " ، فلم يقل مباشرة : أود إبلاغكم أو أنهى إليكم . ويثير ذلك انتباها خاصا لطبيعة العلاقة التي ربطت بين الرجلين .

رابعا - هذا الكتاب جاء ردا على مخاطبات من قبل المراجع اليهودية الصهيونية التي سبق أن تقدمت للحكومة البريطانية بمذكرات تتضمن شرحا للأمني ومطالبة بإصدار الوثيقة . هناك دأب ومثابرة وإحاح ، وهناك تجنيد مؤكد لبعض عناصر مجلس الوزراء إن لم يكن لهم جميعا .

خامسا - عندما صدر هذا التصريح لم تكن القوات البريطانية قد اكتسبت أية صفة على فلسطين غير صفة الغازي الذي يحمل نية الاحتلال . وذلك ما يلقي ضوعا على تصرفات الدول الاستعمارية التي تلعب بمصائر الناس وتتصرف بالأوطان تصرفها في ملك خاص ، وتدعي مع هذه اللصوصية والتآمر صفة الرقي والديمقراطية ونصرة الحرية .

سادسا - تلاحظ عبارة (قصارى جهدها) عند نعت مدى الجهد الذي ستبذله بريطانيا من أجل وضع وعدها موضع التنفيذ .

من هم الأصل ؟

سابعا - كل ما سبق يهون ويهون جدا بالقياس إلى عبارة " الجماعات غير اليهودية المتواجدة في فلسطين " . وهذا هو التزييف الوقح والفجور الصارخ الذي يبلغ مبلغ كشف العورة في وجه الحقيقة . ففي الوقت الذي جعلت الصياغة اليهود هم الأصل والمرتكز ولب الموضوع وبيت القصيد في فلسطين ، لم يكن عددهم يمثل مقدارا يزيد كثيرا على نسبة ١ % من عدد السكان . ولم تكن لهم ممتلكات ولا مساهمات في حياة البلاد على أي صعيد يسمح بمجرد القول إنهم أقلية ذات بال ، فضلا عن أن يقال إنهم أساس البنية السكانية . فالجمهرات اليهودية التي جيء بها إلى فلسطين جيء بها من وراء البحار دون أن تكون لها بالبلاد أية علاقة قديمة أو جديدة . وغالبيتهم الساحقة ذات أصول خزرية ترجع إلى دولة الخزر وميراثها كما أوضح الكاتب اليهودي الأمريكي في كتابه الذي يحمل هذا العنوان . والفلسطينيون الذين تضرب جذورهم عميقا في الأرض لم يكونوا غزاة لها ولا سبقهم إليها أي يهودي .

ثامنا - وأردل من تلك الصياغة التي قلبت الحقيقة رأسا على عقب ، هذه الصياغة الأخرى التي أعقبتها وتضمنت معنى ظاهرا هو التحفظ لصالح أهل البلاد وأصحابها الشرعيين . وحقيقة الأمر أن هذا التحفظ ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب . فهو يتحدث عن التزام بريطانيا بالحقوق المدنية والحقوق الدينية للفلسطينيين أهل البلاد . وهكذا أتبع الصياغة إنكار صفة الفلسطينيين أصحابا للبلاد بإنكار حقوقهم السياسية التاريخية الحقوقية .

تاسعا - وفي مقابل هذا التحفظ العدائي الذي يعني انتزاع هذه الحقوق من الفلسطينيين الأصلاء في بلادهم ، تأتي الصياغة بالتحفظ المقابل لصالح اليهود المقيمين في بلاد الآخرين فتمنحهم الحقوق ذاتها في تلك البلاد . وهكذا تتكون المعادلة بطرفيها : سلب من هذا ومنح لذاك .

عاشرا - آخر هذه الملاحظات ذكر الاتحاد الصهيوني الذي هو الجهة الحقيقية التي أرسلت إليها الوثيقة عبر المصرفي المليونير . والاتحاد الصهيوني هو الجسم التنظيمي المنبثق أصلا عن المؤتمر الصهيوني الأول في بال بسويسرا عام ١٨٩٧ . ويثور السؤال عن السبب الذي حدا بالحكومة البريطانية لإرسال الرسالة عبر روتشيلد أي عدم إرسالها مباشرة إلى الاتحاد الصهيوني . والجواب الوحيد هو أن محرر الرسالة أراد أن يسلمها إلى الرجل الذي سيميل ناحية الخزنة بجواره وينفخ وزير الخارجية البريطاني (وربما غيره من الوزراء ذوي الشأن رشوتهم المنتظرة) .

تدليس وتجنيد

هذه مجرد ملاحظات شكلية . فإذا رحنا نستزيد من المعلومات والتحليلات فسوف يثير انتباهنا الجهد الدؤوب المثابر القائم على تفكير وتدبير بارعين من قبل القيادة الصهيونية ، ويثير انتباهنا أيضا ما تحدثت عنه الوثائق التاريخية من خطوات في مراحل عملهم المختلفة : فإذا كان العمل في صياغة الوعد المشؤوم قد استغرق أربعة شهور (من حزيران يونية إلى نوفمبر تشرين الثاني) تداولت القيادات الصهيونية ما بين بلدان أوروبا وبين أوروبا وأمريكا مسودته خلالها حيث تمت العناية بكل كلمة وكل حرف ، فلا شك أن التوصل إلى إقرار الوعد بخطوطه الرئيسية قد استغرق زما طويلا قبل ذلك .

لقد حشدوا من أجل اكتساب المؤيدين لأطماعهم ومشاريعهم الرهيبة العديد من الأنصار المختلفين والعديد من الحجج والمقولات والبراهين . فهم استغلوا العامل التوراتي لجذب بلفور المعروف بميوله التوراتية منذ كان حاكما لإيرلندا . واستغلوا العامل الديني لجذب الأسر اليهودية البريطانية الغنية كأسر مونتفيوري وروتشيلد ومونتاجو التي كانت ترى هي وغيرها من الأسر المستقرة في مواطنها في المشروع الصهيوني تهديدا لمصالحها ونفيا لمواطنتها في البلاد التي كونت فيها ثرواتها ، واستغلوا عامل المصلحة وسلطانها في تجنيدهم العديد من الشخصيات البريطانية المتعلقة بالقيم الاستعمارية ، حين عبأوهم بفكرة أن وجود دولة يهودية موالية لبريطانيا بجوار قناة السويس سيكون ضمانا دائما للمصالح النفطية والاستراتيجية لبريطانيا العظمى . واستغلوا عامل التنافس بين الدول ليقولوا للبريطانيين إن الدولة اليهودية ستكون بمثابة إحباط لمشاريع فرنسا التي تطمع بضم فلسطين إلى ممتلكاتها على أساس كون فلسطين - شأن لبنان - جزءا من سوريا . واستغلوا وجود اليهود الأمريكيين ذوي النفوذ في البيت الأبيض (منذ ذلك العهد) ، ليمنوا بريطانيا بأنهم سيضغطون على الرئيس الأمريكي ليدعم موقف الحلفاء في الحرب العالمية الأولى . وأكثر من هذا : إن قيادة الحركة الصهيونية تمكنت من إقناع الجميع بإمكان التعاطي مع موضوع من هذا القبيل دون مراجعة العرب أهل البلاد في الأمر جملة وتفصيلا ، وتمكنوا من إدخال الساسة البريطانيين في لعبة الكذب والتدليس والمماراة والتأجيلات كلما قام أصحاب الحق بالاحتجاج والمراجعة . وقد كذبوا على أشد أنصارهم العرب بقولهم لهم إن وعد بلفور لن يتعارض مع الأماني الوطنية والقومية العربية . وقد أدمجوا وعد بلفور ضمن معاهدة السلام مع تركيا في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢١ ، كما أدمجوه في صك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم عام ١٩٢٢ .

تصريحات .. تصريحات

وأثناء هذه التدابير التأميرية لم تكف الدول الاستعمارية عن صناعة الأكاذيب وتوزيعها على الشرق الخارج لتوه من الحرب التي أكلت البشر والأرزاق . ومن ذلك ما لفته الجنرال النبي قائد القوات البريطانية لدى دخوله القدس بتاريخ ٢٩ / ١٢ / ١٩١٧ إذ قال : إن غاية الاحتلال البريطاني هي تحرير فلسطين من النير التركي وإنشاء حكومة وطنية حرة فيها . ، وفي ١٥ / ١ / ١٩١٨ قال لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية : إن بريطانيا تعترف بحق فلسطين وسوريا والعراق والجزيرة العربية في الحرية والاستقلال وتشكيل حكومات وطنية حرة فيها . ومن ذلك أيضا ما لفته كل من بريطانيا وفرنسا في بيانها المشترك وقالت فيه إن السبب الذي حاربنا من أجله في الشرق هو تحرير الشعوب العربية وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين فيها اختيارا حرا . ومن ذلك أيضا ما صرح به الرئيس الأمريكي وودرو ولسون في عام ١٩١٥ بقوله : إن الفتح والاستيلاء ليسا داخلين في برامج الحكومات الديمقراطية ولا يتفقان مع مذهبها .

لايتفقان مع مذاهبيها؟؟!! أهلا .. سهلا .. سهلا .. أهلا .. ما أصدقكم . ما أنبلكم . ما أعف أيديكم . ما
أنظف أسنانكم !

ولكن هذا على كل حال هو ميراث جورج بوش وتوني بلير . فهل نتذكر بالمناسبة ؟

